اللازمة . الا ان الاوصياء أخبروه انهم لا يريدون المساهمة في مثل هذا المشروع . ويذكر غرونفالد ايضا بأن ارشيف البارون اختفى تماما ، ولم يبق من مراسلاته ذات الحجم الضخم الا النزر اليسير ، مما اضطره الى أن يعتمد في مصادره على الكتب والوثائق المنشورة بدلا من الرجوع الى المراجع الاولية كالرسائل والوثائق الشخصية غير المنشورة ، مثلما كان يتمنى ان يفعل عندما بدأ دراسته لحياة البارون وانجازاته في ميداني المقاولات والاعمال الخيرية .

ما هو اذن سر هذا الغموض الذي يحيط بذكرى البارون الاسطوري الذي عاش حياته تحت الاضواء ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال في سياق دراستنا المختصرة لحياة البارون ودوره في الحركة الصهيونية ، علينا اولا ان نلقي نظرة على جذور الرأسمالية اليهودية التي شكل هيرش نقطة الذروة فيها،وذلك من خلال الخلفية التاريخية للاحداث التي بلورت الاقتصاد الاوروبي في القرن الماضي . ففي الفترة الواقعة بين التوقيع على معاهدة وستفاليا عام ١٩٤٨ (وهي المعاهدة التي جلبت السلام الى الربوع الالمانية بعد حرب الاعوام الثلاثين الطاحنة التي دمرت البلاد) وبين الحروب النابليونية في اواخر القرن الثامن عشر ، شهدت المانيا المنقسمة الى ممالك وامارات عديدة ، ظاهرة جديدة هي ظاهرة يهودي البلاط . فالمانيا لم تمتلك عملة نقدية موحدة ، بل كان كل أمير وملك يصدر عملته الخاصة للتداول داخل منطقة حكمه . وهذه الفوضى الاقتصادية أبرزت الحاجة الى اشخاص مؤهلين للقيام بأعمال الصيرفة ، مما دعى الحكام الى الاستعانة باليهود ليشغلوا هذه المناصب . فكان يوجد في كل بلاط الماني يهودي يتولى أعمال الصيرفة . وعلى ممر الزمن ، تطور عمل صراف البلاط ، فأصبح مستشارا ماليا للحاكم ، بل ودائنا له في معظم الاحوال ، مما أكسبه نفوذا اقتصاديا متزايدا . ثم جاءت الحروب النابليونية لتعصف بأوروبا من اقصاها الى ادناها ، وكبقية الحروب الاخرى على مدى التاريخ ، كانت هذه فرصة ممتازة لمستغلي الفرص المناسبة لان يضاعفوا ثرواتهم . فبرزت في هذه الحقبة أسرة روتشيلد الشهيرة التي توزع ابناؤها في فرانكفورت وباريس ولندن وفيينا ونابولي ليتحكموا بالاقتصاد الاوروبي ، وبرزت غيرها أسر يهودية عديدة .

وفي هذه الفترة ايضا ، برزت عائلة هيرش في شخص مؤسسها موسى ، الذي سنجد اول ذكر له في وثيقة يرجع تاريخها الى ١٨٠٣ (أي اوج الحكم النابليوني) ، وفي هذه الوثيقة الصادرة عن السلطات الالمانية المحلية، نجد توصية «باليهودي المحمي هيرش ، من اهالي مقاطعة كوننغز هوفن (بجنوب المانيا) بسبب سلوكه الحسن » . وهذا السلوك الحسن هو الذي جعل السلطات تضفي عليه حمايتها وتسمح له ولابنائه بامتلاك الاراضي في المملكة البافارية . وعلينا هنا ان نتوقف لحظة في سردنا لحياة هيرش ، لنلقي نظرة سريعة على اوضاع اليهود في المانيا آنذاك. كانت المانيا قد طردت الجالية اليهودية من اراضيها في العصر الوسيط ، ثم عادت وسمحت لبعضهم بالاقامة فيها في العهود المتأخرة . الا ان السلطات قيدت حرية اليهود ولم تمنحهم حقوق المواطنة كاملة . فقد حرمت عليهم التجول في انحائها بدون اذن رسمي ، وحتمت عليهم الاقامة في أحياء معينة دعيت الغيتو ، ومنعتهم من امتلاك الاراضي الزراعية ، ومن الخدمة بالجيش ، ومن العمل في السلك الحكومي . وفي ولاية فرانكفورت ، لم يسمح القانون لليهود بعقد أكثر من اثني عشر زيجة في السنة ، وذلك بقصد الابقاء على عدد الجالية قليلا . وفي هذه الظروف الخانقة ، انصرف معظم اليهود الى الاشتغال بالمال ، لا سيما وان الكنيسة لم تحبذ اشتغال المسيحي بالربا . وفي مجال المال برز اليهود ، وحصلوا